وسائل الاعلام الغربية والاستلاب الثقافي

د. صالح ابو اصبع

في البدء قبل أن نخوض في بحثنا المقترح عنوانه « وسائل الاعلام الغربي والاستلاب الثقافي » فانني احب أن أشير إلى بعض الأمور الفنية والمنهجية .

أولاً ـ انني أفضل استخدام كلمة الانسلاب بدلاً من الاستلاب ، ذلك لأن الأولى تشخص حالة المغزو المنسلب، بينما الثانية تشخص حالة الغازي المستلب . . وطبيعي اننا معنيون بحالتنا نحن المغزوين .

ثانياً ! إن دراسة تأثير وسائل الاعلام بشكل عام على المواطن العربي لم تلق عناية كافية ـ هذا اذا وجدت ـ من علماء الاجتماع والاعلام في الوطن العربي . . ومن ثم فان الحديث عن الامبريالية الثقافية يظل في احسن الأحوال شيئاً نشمه ، ولكننا لا نستطيع أن نمسك به وذلك لنقصان الابحاث ـ بل وانعدامها ـ التي تدرس تأثير البرامج الاعلامية الغربية كأشرطة الاذاعة المرئية والخيالة على الجماهير العربية ، وكذلك لنقص الدراسات التي تبحث مدى تأثير قصص الأطفال والمجلات المترجمة أمثال السوبرمان والوطواط على الطفل وتكوين مثله وقيمه وسلوكه .

وأيضاً لنقص الدراسات التي تحلل مضمون صحافتنا العربية، وتكشف مدى ما تتضمنه من مادة أصيلة أو مقتبسة ، ومدى تأثيرها على القارىء ، ولذا فان البحث الميداني مفتقد ، وهو الاساس الذي يمكن أن يعتمد عليه في دراسة تأثير وسائل الاعلام على الانسلاب الثقافي .

ثالثاً ـ للسبب السالف ، فان هذه الدراسة تقدم اطاراً نظرياً لدراسة تأثير وسائل الاعلام الغربية على المواطن العربي ، وخلق حالة انسلاب ثقافي لديه .

رابعاً ـ لا يمكننا أن نعزو سبب الانسلاب إلى غزو الثقافة الغربية لثقافتنا العربية لوحدها ، ذلك يمكن أن يكون تعميماً ضاراً ، يؤدي إلى تجاهل كل الاسباب الحقيقية التي تؤدي بمواطن ما إلى حالة الانسلاب .

إن الثقافة الغربية بلا شك عامل هام من العوامل التي تؤدي إلى الانسلاب ، ولكن يجب أن نشير إلى أن المناخ السياسي والاجتماعي الذي يعيش فيه المواطن العربي يخلق جواً يهيىء لحالة الانسلاب ويدفع اليها . ان كبت الحريات والقمع الذي يلقاه المواطن العربي نفسياً وجسدياً ، وان الاحباطات التي يواجهها المواطن على مستوى القضايا القومية . هذه العوامل كلها ، تؤدي إلى خلق فرض تهيىء لقبول حالة الانسلاب وتعزيزها . هذه اشارة ضرورية ، لنعرف ان نجاح الغزو الثقافي الغربي يتعزز من خلال عوامل داخلية ؛ سياسية واجتماعية ونفسية . وهنا لن نخوض في هذا الجانب ، لطبيعة البحث سوف نقتصر على دور وسائل الاعلام الغربية في الانسلاب الثقافي .

الغزو الثقافي ظاهرة عالمية

الامبريالية الثقافية ظاهرة عالمية في عصرنا الحاضر ، وكما نعاني منها تعاني منها دول العالم النامية كافة . ودول العالم المتقدمة سواء بسواء وان اختلفت الدرجة .

وتختلف خطورة الامبريالية الثقافية من بلد إلى آخر ، وبمقدار ما تقترب ثقافة الغازي من المغزو تضيق حدود الأهمية ، وكذلك بمقدار ما تواجه الثقافة الغازية من مقاومة من الثقافة المغزوة ، فان الخطورة تتضاءل . ولكن المسألة بالنسبة للوطن العربي شيء آخر فالثقافة العربية لا تواجه الثقافة الغازية في اطار موحد . إذ ان الكيانات الاقليمية ينعدم فيها بينها التنسيق لمواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الغربي ، ومن ثم فالقضية

بالنسبة للانسان العربي تصبح مهددة لثقافته .

اننا في هذا العصر نواجه ما أسماه توماس ماك فيل Thomas Mc Phail (١٢٨٠ ص ـ ٢٠) بالامبريالية الاليكترونية والتي يعرفها بقوله : ـ

« بأنها علاقة التبعية التي تأسست باستيراد معدات الاتصال والبرامج الأجنبية ومعها المهندسون والفنيون ،وما يتعلق بها من برتوكلات ومعلومات ، وذلك بخلق الأسس لمجموعة من المعايير والقيم الأجنبية والتوقعات والتي يمكن أن تغير الثقافة المحلية وعمليات التنشئة الاجتماعية الى درجات مختلفة . فالاستيراد يتنوع من الكتب الهزلية الى الاقمار الصناعية ، ومن الكومبيوتر إلى الليزر وبجانبها المنتجات الأكثر تقليدية مثل البرامج الاذاعية والمسرح وأشرطة الخيالة وخدمات البرق وعروض الاذاعة المرئية » .

الانسلاب ما هو ؟

إن ما يعنينا هنا هو دراسة تأثير الامبريالية الاليكترونية على حالة الانسلاب الثقافي في الوطن العربي .

إن الانسلاب حالة نفسية تؤدي بالفرد إلى الانسلاخ عن ثقافته وتبني ثقافة أخرى غربية . كتب شاتز ورفيقه ونتر (Schatz and Winter (١٩٦٦ . ص ـ ٣١٩) « بأن امكانية الانسلاب قائمة حيثما كان الانسان ـ سلباً أو ايجاباً ـ يرتبط بالعالم الموضوعي المحيط به من اجل العثور على ذاتيته وتوافقها مع نفسه على الرغم من اختلافها عن هذا العالم ، ومن ثم فان الانسلاب يصبح مرادفاً للتنافر مع ثقافة المجتمع » .

إن الانسلاب بأبسط تعريفاته حسب ما يراه جاك ألول Jacques Ellul (١٩٧٣ . ص ـ ١٦٩) هو « ان تصبح منسلباً هو ان تصبح شخصاً آخر غريباً أكثر من كونك نفسك ، وكذلك يمكن أن تعني أن تصبح خاصاً بشخص آخر ، وبمعنى آخر فان هذا يعني انسلاخ الشخص عن نفسه ليصبح خاضعاً ، وحتى متمثلاً بشخص آخر » .

ويرى جاك ألول بأن تحقيق حالة الانسلاب هو هدف من أهداف الدعاوة التي تلتزم بتوظيف وزيادة وتدعيم ميل الشخص بفقدان ذاته في أمر أكبر منه كنزاع بطمس شخصيته ، ويحرر فيه الأنا من كل شك وصراع ومعاناة من خلال الذوبان مع الآخرين . ومن ثم فان هذه الدعاوة تخلق حاجات مصطنعة في أنفسنا كزيادة في الرغبات والهوى والحاجات غير الضرورية .

وهذه الحاجات المصطنعة تفترض أهمية معقولة بسبب طبيعتها العالمية ، وبسبب وسائل الاعلام التي تم بها التحريض على تلك الحاجات وتصبح مطلوبة وضرورية للفرد أكثر من احتياجاته الخاصة ، ومن ثم فانها تقوده إلى التضحية برغباته الخاصة . وما يجري في الاقتصاد يجري كذلك في السياسة والثقافة ، فان نمو الحاجات تدريجياً يقضي على حاجات الفرد وميوله الشخصية . وهكذا فان ما يجري ، في الحقيقة ، هو تدمر الفرد لنفسه من الداخل . وهذا التدمير مصمم بحيث يضمه إلى قوى مجردة ذات توجه ميكانيكي . وعلى هذا المستوى أيضاً ، فانه بمقدار ما يقتنع الفرد بأن ما يفكر به أو يشعر أو يفعل انما هو من ذاته بمقدار ما يعظم الانسلاب .

ماذا تريد الامبريالية الثقافية ؟

إن تتبعنا لما يجري اليوم في العالم الثالث وفي الوطن العربي على وجه التحديد سوف يجعلنا ندرك أن الاستعمار القديم والاستعمار الجديد يستهدفان دوماً صنع مناخ ملائم لانسلاب افراد المجتمع المغزو . لأن مثل هذه الحالة الفكرية سوف توحد بين تطلعات المنسلب والمستلب وبالتالي فان فرصة تحقيق مصالح المستعمر يمكن أن تتحقق وتستمر باستمرار الذهنية المنسلبة التي تضمن سيطرة المستعمر .

ففي كتاب **الشؤون الثقافية والعلاقات الخارجية** كتب روبرت بلوم Robert Blum (١٩٦٣.ص ـ ٢٠) يقول : « انه التزام مما أن نفعل ما وسعنا الجهد لنمارس نفوذنا الثقافي ـ أي الأمريكي ـ بطريقة تساعد الآخرين وبحيث لا يكون حجم المساعدة يسمح للمبادىء الغربية بأن لا تمدّ الآخرين بشيء سوى التطلع إلى تغيير غير مسيطر عليه . هذه مهمة ثقافية أساسية تستلزم تصوراً واضحاً لقيمنا وللطريقة التي فيها نرغب من الآخرين أن يشاركونا بها هذه القيم » .

إن هذا المفهوم الامبريالي يرينا بوضوح كيف يتصور الغربيون مد نفوذهم الثقافي لا لشيء سوى السيطرة ونشر قيمهم الثقافية . واذا كان الاستعمار القديم قد دخل بأدواته العسكرية لاحتلال الأرض ، فان أدواته الثقافية جاءت لتغزو العقول ، وكانت أحد الأهداف الاساسية هي نشر لغة المستعمِر في البلد المستعمَر . وللأسف ان الكنيسة في العالم الغربي تعزز الامبريالية وتدعمها ، كان ذلك واضحاً في المرحلة الاستعمارية وخاصة في افريقيا حيث رافقت الكنيسة القوى الاستعمارية كذراعها الثقافية في حملات الغزو . . . واليوم لا تختلف الرؤيا كثيراً ففي مقال نشر في مجلة دينية عنوانها The Plain Truth يكتب ريموند ماك نير Raymond Mc Nai في فبراير ١٩٨٢ مقالاً بعنوان اللغة العالمية يقول فيه :

« يبدو غريباً للوهلة الأولى أن ارادة الله رفعت اللغة الانجليزية كأداته الرئيسية التي بها سينشر ويعلن الاخبار الطيبة لمملكته القادمة لمعظم العالم في نهاية العصر . . . ليست الانجليزية فحسب هي لغة الكتابة والاذاعة والكلام والتفاهم في كل القارات ، ولكنها أصبحت اللغة المشتركة ، اللغة العالمية للدبلوماسية والتعليم والعلم والتجارة والرياضة . ولهذا فان الانسان يستطيع أن يرى بوضوح لماذا اختار الله اللغة الانجليزية كاللغة رقم واحد للوصول إلى أكبر عدد من سكان الأرض مع انذاره النهائي للبشرية وتبشيره بالاخبار الطيبة لعالم الغد » .

إن المرء لا ينكر ما للانجليزية من انتشار ، ولكن ما ينكره هو الروح التي وراء مثل هذا التصريح التي تطرح لغة ما بديلاً للغات الشعوب ، ولكن هذا التصور له ما يبرره ، ان التبعية التي يعاني منها العالم الثالث بشكل عام هي التي تجعل هذا التصور ممكناً ، فكما يلاحظ انتوني سميث Antony Smith (١٩٨٠ ـ ص ٢٧) « انه حتى الآن فان دول العالم الثالث التي احرزت استقلالها السياسي في هذا القرن ، ما زالت تعاني من تبعية اقتصادية وتبعية ثقافية » .

ومن ثم فاننا نرى أن مثل هذا الاستقلال السياسي يصبح أمامه علامة استفهام كبيرة في مثل ظروف هذه التبعية .

وفي أيامنا هذه ، فان دول العالم الثالث تشعر بفداحة هذه التبعية وما فتئت تناضل من اجل الانفكاك منها ولعل النضال في المجال الدولي من اجل خلق نظام اقتصادي عالمي جديد انما هو خطوة على هذا السبيل والذي نظرياً . . . تعزز من خلال الوثيقة رقم 1972 (S- VI) 3202) التي اصدرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بناء على توصيات دول العالم الثالث ، من اجل خلق نظام اقتصادي عالمي جديد . ولعل الحوارات بين الشمال والجنوب هي خطوة أخرى على هذا الدرب . ومن اجل الانفكاك من اسار التبعية الثقافية فان النضال في اطار اليونسكو من أجل خلق نظام عالمي جديد لتدفق المعلومات والاتصال ، انما هو شعور بخطورة ما تعانيه دول العالم الثالث من هيمنة تهدد الثقافة الوطنية والشخصية ، شخصية الافراد وشخصية المجتمع على حد سواء .

إن مسألة الغزو الثقافي في حد ذاتها تنبع من عدم المساواة التي تؤدي إلى الظلم . إن الدول الغربية التي امتلكت التقنية من صناعة الآلات الى صناعة الاشرطة وقدرتها على النفاذ إلى الاسواق العربية تهدد الثقافة العربية . حيث نجد العجز والتخلف الذي لا يستطيع مجاراة تلك التقنيات الغربية وامكاناتها المادية والفنية . ومن هنا تكمن عدم المساواة التي تؤدي إلى ظلم المجتمعات بتهديد ثقافتها الوطنية وخلق حالات من الانسلاب لدى مواطنيها .

وسائل الاعلام المعاصرة والهيمنة الغربية

إن وسائل الهيمنة الغربية الثقافية تكمن في التحكم فيما يلي :

١ ـ وكالات الانباء العالمية بما تمتلك من قدرات على نقل اخبار العالم وتشكيل التصورات عن الاشخاص والشعوب والثقافات .

٢ ـ التحكم بالاتصالات الدولية من خلال الاقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية .

٣ ـ التحكم بالسوق التجارية ـ صناعة وتسويقاً ـ لصناعة تشكيل العقل البشري من خلال الأفلام ـ الكتب ـ الاسطوانات ـ المجلات . . الخ .

٤ ـ التحكم بالتقنية انتاجاً وتسويقاً .

٥ ـ الاذاعات الموجهة .

أولاً : وكالات الانباء العالمية

يعرف آل هستر Al Haster (١٩٧٤ : ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩) « وكالة الانباء العالمية بأنها تلك التي تغطي بخدماتها الكرة الأرضية وبمقدورها أن تغطي الأحداث في جميع الاماكن الهامة » .

وينطبق هذا التعريف على خمس وكالات عالمية هي : وكالة الانباء الفرنسية ، الاسوشيتدبرس ، رويتر ، تاس . . اليونايتدبرس . ان دور وكالات الانباء العالمية أساسي في تشكيل آراء الافراد وفي تكوين الرأي العام حيث معظم ما ينشر من صور عن العالم الخارجي في وسائل الاعلام العربية انما يأتي من خلال أقنية هذه الوكالات ، وقد تكون هذه الصور ذات أهمية كبيرة ولكنها تغطي تغطية ضئيلة أو العكس .

وعلى الرغم من وجود وكالات أنباء عربية محلية ، فان مهمتها في الاغلب مهمة نقل ما يصلها من الوكالات العالمية اذ تقوم الوكالات المحلية باختيار الانباء وتوزيعها على وسائل الاعلام المحلية .

وفي أحيان كثيرة ، فان هذه المهمة ـ التي هي نوع من الضبط والسيطرة على الخبر الخارجي ـ تسهم اسهاماً فعالا في خلق جو يساعد على الانسلاب . اذ أن القارىء أو المستمع العربي لم يعد يثق في وسائل اعلامه التي كثيراً ما تلجأ الى

التضليل . وبالتالي يهرب القارىء والمستمع العربي إلى مصادر اجنبية يعطيها ثقته ، وهي بدورها تقدم رؤى غربية تسهم في بناء تصورات لدى زبائنها ، تنسجم مع ثقافتها وتعبر عنها .

وانه لمن السخرية أن يكون للوكالات العالمية الدور الأكبر في نقل أخبار اقطار الوطن العربي واعادة بثها إلى هذه الاقطار ، بينما تعجز الوكالات العربية عن أداء ذلك . إن خطورة ذلك تكمن في ان ما تنقله وكالات الانباء يتلون بمنظار ناقلها ويتلون بمصالح البلد التي يمثلها . وهكذا تعود الينا بضائعنا ليست مرتدية سروالاً وقبعة ، ولكنها تأتي مغلفة بلغة الخواجا وتفسيره للأمور بما يتفق مع مصالحه ، واذا كان الجمهور العربي لا يثق بإعلامه فانه بحثاً عن « الحقيقة » سيتطلع إلى المصادر الأجنبية التي تقدم له الحقيقة من خلال مذاقها ومنظارها .

ثانياً ـ التحكم بالاتصالات الدولية عن طريق الاقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية .

تتحكم الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا بالاتصالات الدولية التقليدية ـ اللاسلكية ـ وبالاتصالات الحديثة بما لها من مقدرة على تحطيم العزلة والوصول إلى المناطق النائية التي لم تكن تصلها وسائل الاتصال القديمة . . . وعلى الرغم من الآمال الواعدة في المقدرة على استخدام الاقمار الصناعية في مجالات التعليم والتنمية ، الا انها تمتلك بعض المخاطر التي تهدد الدول النامية والتي لا تستطيع أن تستثمر جزءاً من مواردها في وسائل الاتصال الحديثة مما يؤدي إلى عدم مقدرتها على تمويل وانتاج برامجها ، وهذا ينطبق على البلدان العربية غير النفطية . ومن ثم فان من يمتلك مقدرة الارسال من خلال الاقمار الصناعية يمتلك معها ميزة بث برامجه الى تلك البلدان ومن ثم فان تأثير هذا البث على الثقافة المحلية سيكون كبيراً .

ثالثاً : ـ الاذاعات الموجهة

لم يعد غريباً أن نجد المواطن العربي حريصاً على الاستماع إلى نشرة الاخبار من اذاعة لندن البريطانية ، أو مونت كارلو الفرنسية ، أو صوت أمريكا ، أو صوت المانيا . إن كل هذه الاذاعات التي تقدم برامج بث بالعربية لساعات طويلة كل يوم ، تستهدف قبل كل شيء اجتذاب المستمع العربي وتشكيل تفكيره .

إن هذه الاذاعات تكتسب جمهوراً يتزايد يوماً بعد يوم ، مع اضمحلال الثقة بوسائل اعلامه المحلية ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان هذه الاذاعات تعد بالنسبة له اطلالة على العالم المتقدم وهي بهذا تتيح له آفاقاً من المعرفة قد لا تقدمها له اذاعاته المحلية . وهي الى جانب ذلك تعمل على غرس ثقافاتها ، وتخلق لدى المستمع انماطاً من الحاجات التي هي ليست حاجته ، وتصنع له ابطالاً ليسوا هم بأبطاله ويعيش في جو اقرب إلى الاغتراب . . ويصبح على حافة الانسلاب اذا لم يكن قد وقع فيه .

رابعاً ـ التحكم بالسوق التجارية لصناعة الاشرطة وبرامج الاذاعة المرئية والاسطوانات والكتب . . الخ .

تعتبر الولايات المتحدة المهيمنة الأولى على صناعة الأشرطة في العالم وينبع مركز السيطرة الأمريكية على صناعة الصور المتحركة في السوق العالمية من عدة أسباب :

أ ـ ضخامة الاستثمارات في قطاع الأشرطة مع التقنية المتقدمة التي رافقت الانتاج السينمائي .

ب ـ امتداد الشركات الامريكية إلى أسواق أخرى ، كفتح فروع لها في بريطانيا وفرنسا وايطاليا .

ج ـ الأشرطة الأمريكية هي الأكثر توزيعاً في العالم .

د ـ شركات الأشرطة تسيطر أيضاً على شبكة من شركات التوزيع ذات الامتداد والفاعلية في العالم كله . حيث يجد المنتجون من البلدان الأخرى انفسهم مضطرين إلى توزيع أشرطتهم من خلال الشركات الأمريكية .

هـ ـ الانتاج الكمي والنوعي للأشرطة يجعل الاسواق الأخرى غير قادرة على منافسة السوق الأمريكية .

وكما يؤكد نوردنسترينغ ورفيقه فارس Nordenstreng and Varis (١٩٧٤ : ص ٢٩) فان البرامج المستوردة في البلدان العربية معظمها من الولايات المتحدة وبريطانيا ومن الأقطار الغربية الأخرى . وعلى سبيل المثال ، ففي لبنان ٥٠ ٪ من البرامج المستوردة يأتي من الولايات المتحدة وفي مصر ٧٠ ٪ من البرامج المستوردة استورد من الولايات المتحدة ، وأما اليمن الديمقراطي فان ٢٥ ٪ من برامجه المستوردة أمريكي و ١٥ ٪ بريطاني و ١٠ ٪ سوفيتي .

واذا أضفنا الى ذلك ما يعرض في دور العرض السينمائية وأشرطة الفيديو ، فاننا ندرك أن السوق العربية تعاني من سيطرة سوق الأشرطة الأمريكية .

وعلاوة على هذا ، ففي مجال الكتب فان قصص الأطفال المترجمة أمثال قصص ميكي ماوس ، الوطواط ، سوبرمان ، وقصص والت ديزني تملأ الأسواق .

ونظرة فاحصة إلى المجلات الأسبوعية العربية ، ترينا أن القارىء مظلوم لا يعرف حقيقة ما هو مترجم من المقالات وما هو أصيل . فنسبة كبيرة من موضوعات المجلات العربية ترجمات حرفية للصحافة الأجنبية ، بدون ذكر المصدر أو اسم الكاتب . وفي أحيان أخرى يتم اقتباس موضوعات وتحويرها وتذييلها بتوقيع كاتب عربي . إن مثل هذه المواد الاعلامية التي تزخر بها السوق العربية كفيلة بإرباك القارىء وتخلق حالة ذهنية عربية ان لم تستلب بعد فانها في طريقها الى الانسلاب .

خامساً ـ التحكم بالتقنية صناعة وتصديراً

تتحكم الدول الغربية ومعها اليابان الآن في صناعة وتجارة تكنولوجيا الاتصالات الدولية . وهذا التحكم يأخذ لوناً من الوان التسلط ، حينما تحظر هذه الدول تصدير سلعة من سلع التكنولوجيا الى الدول العربية على الرغم من قدرتها الشرائية على ذلك . وخير مثال على ذلك الحظر الأمريكي على تصدير معدات القمر الصناعي العربي بدعوى أن استخدام القمر الصناعي سوف يتيح لمنظمة التحرير الفلسطينية وليبيا فرصة استخدامه . وهذا حسب المفهوم الامريكي سوف يجعل القمر الصناعي في خدمة « الارهاب » .

من خلال أساليب الهيمنة السابقة ، فان وسائل الاعلام الغربية تنفذ إلى السوق العربية ، لتمارس دورها في التأثير على الثقافة العربية ، حيث تحاصر وسائل الاعلام الغربية الانسان العربي بالكلمة المسموعة والصورة المتحركة ، والكلمة المقروءة . إن الانسان في عصرنا يجد نفسه مشدوداً إلى سماع الخبر والتعليق ، وقراءة الصحيفة أو المجلة ، والاسترخاء مع قصة يقرأها ، أو مشاهدة برنامج مرئي ومن خلال ذلك كله ، أصبح الفرد يعتمد اعتماداً كبيراً على تحصيل المعلومات من وسائل الاعلام ، سواء أكان ذلك بطريق مباشر ، أو عن طريق شخص آخر تلقّاها من وسائل الاعلام .

تأثير وسائل الاعلام من خلال تزويدنا بالمعلومات

اعتمادنا على المعلومات التي نتلقاها من وسائل الاعلام ، يتضمن مجموعة من التأثيرات على الفرد والمجتمع . وكما يرى روبرتس Roberts (١٩٧٧ : ص ٣٧٩ ـ ٣٨٤) فان وسائل الاعلام لها القدرة الهائلة على توجيه أنظار الجمهور إلى ما تنشره من معلومات ، فالجمهور عادة ينظر إلى هذه المعلومات على أنها هامة ومن ثم فانها تؤثر على قناعاته . كذلك فان وسائل الاعلام تنشر صور محرفة ومنحازة حول الظروف المحيطة بنا ، واذا كان الجمهور غير قادر على نقد مضمونها ، فان مثل هذه المعلومات ستصبح جزءاً من تصوراته وقناعاته .

وأيضاً فان وسائل الاعلام تحجب، عن النشر معلومات هامة ، ولذا فان عدم وصول المعلومات الكاملة التي توضح الحقيقة للجمهور ، يمكن أن يحرف الطريقة التي بها ينظم الجمهور تصوراته للواقع ، وعلاوة على ذلك ، فان المعلومات التي يستقيها المرء من وسائل الاعلام ـ وخاصة فيما يتعلق في الأمور الجديدة على الانسان ـ لديها القدرة على التأثير على الشخص خالي الذهن من تلك الموضوعات .

وعلى سبيل المثال يمتلك الجهاز المرئي قدرة كبيرة في التأثير على الأطفال الذين هم في مرحلة التنشئة الاجتماعية ، ومستعدون لاستقبال أي معلومة جديدة تصلهم ، وبذا يصبح الجهاز المرئي هو احد وسائل التنشئة الاجتماعية الهامة في مجتمعنا .

وأخيراً فان وسائل الاعلام التي تؤثر على معرفة الانسان من خلال المعلومات تؤثر على سلوكه وعواطفه وقيمه وآرائه ، لأن المعرفة تشتمل في أحيان كثيرة على نماذج جديدة من السلوك والقيم والآراء .

أشرنا في البدء إلى أن تأثير وسائل الاعلام الغربية على المواطن العربي يحتاج إلى بحوث ميدانية ، ولكن علينا أن ندرك أن مثل هذا التأثير لا يتم فور تعرض الجمهور للرسالة الاعلامية ، وخاصة فيما يمس تغيير قيم الانسان وآرائه ومواقفه . ان فعالية التأثير ليست فورية ، ولكن يمكن أن تصبح حقيقة مع مرور الزمن . فالبرامج الاعلامية الغربية تمثل قيماً مختلفة وتعبر عن أيديولوجيات مختلفة وحينما يتعرض الجمهور لها بشكل منتظم ، فان لها تأثيراً كامناً يتعزز مع تكرارها مما يشكل تهديداً للقيم وللثقافة العربية ، ومما يسهم في خلق شخصية منسلبة ثقافياً .

الاذاعة المرئية الوسيلة الاعلامية الخطيرة

اذا كنا معنيين بوسائل الاعلام الغربية على الانسلاب الثقافي ، فاننا نرى أن أخطر الوسائل الاعلامية الآن في تهديد ثقافتنا القومية هو الجهاز المرئي . فهو الوسيلة الاعلامية الأولى المفضلة لدى الناس وخاصة ، برامجه الترفيهية ، وحيث أن نسبة كبيرة من البرامج الترفيهية تأتي من الغرب ، وحيث أن البرامج الترفيهيه لا تقل نسبتها عن ٥٠ ٪ من جملة البرامج في الاذاعات المرئية العربية ، فان هذا يعني أن الجمهور العربي يقضي أسبوعياً نسبة لا يستهان بها من الساعات ، لمشاهدة الأشرطة وبرامج المنوعات الأجنبية .

هذا مع الاشارة إلى أن بعض البلدان العربية قد تبنت تخصص قنوات خاصة لبث البرامج الأجنبية ـ مثل الأردن

والكويت وتونس وليبيا ـ بدون دراسة لمدى تأثير البرامج الأجنبية على جمهورها العربي .

واذا أدركنا أن أكثر المولعين بمشاهدة تلك البرامج الأجنبية هم من اليافعين الذين هم في طور التكوين الفكري ، لذا فان الاذاعة المرئية يجب أن تلقى عناية خاصة للأسباب التالية : ـ

١ ـ حيثما وجد الجهاز المرئي فانه يحل عادة محل وسائل الاعلام الأخرى . ففي فترة البث المرئي على سبيل المثال ، فان أهل البيت لا يستمعون إلى المذياع وحينما يكون هناك شريط مرئي فان الطالب يفضل مشاهدته على قراءة دروسه .

٢ ـ إن الجهاز المرئي وسيلة اعلامية جماعية يشاهدها الأطفال والكبار والنساء والرجال ، فهو اداة اجتماعية ، تؤثر بمجرد تواجدها على بعض العادات مثل الزيارات العائلية وطبيعة العلاقات الأسرية .

٣ ـ واذا أضفنا دخول الفيديو إلى كثير من البيوت ، وبأشرطته الأجنبية ، فان هذا جعل من كل بيت ، لديه جهاز فيديو ، عبارة عن محطة بث خاصة تجعل للجهاز المرئي أهميته في تنشئة الأطفال .

إن معظم الأشرطة الأجنبية التي تعرضها محطات الاذاعات المرئية العربية تستورد من الولايات المتحدة . ونظرة الى المسلسلات وبرامج السهرة في معظم الأقطار العربية تجعلنا نجد مسلسلات أمثال دالاس ، ملائكة شارلي ، بونتزا ، فيجاس ، كولومبو ، وغيرها الكثير . هذه المسلسلات تحمل معها ثقافة وقيم المجتمع الأمريكي ، وتقدم صوراً لذلك المجتمع . وخطورتها ان المتفرج العربي لا يمتلك القدرة أو الحس النقدي لما يشاهد . وما تقدمه هذه الأشرطة تبهره بدءاً من السيارات الفارهة إلى صورة الحياة الامريكية وانتهاءً بشخصية الفرد ـ البطل .

ويرى كومستوك ورفاقه Comstock et . al (١٩٧٨ : ص ٣٨٥) ، أن هناك ثلاث عمليات سيكولوجية ترافق الوسيلة الاعلامية بتأثيرها على جمهورها .

١ ـ تصور المشاهد الفوري لما يشاهده وتفسيره الآني لمضمون الرسالة الاعلامية .

٢ ـ عملية ذاتية تتم داخل الفرد ذاته .

٣ ـ الظروف المحيطة التي تسيطر وتتحكم في الفرد من حيث ماذا وكيف يتعلم .

إن هذه العمليات الثلاث بها ومن خلالها يمكن أن يتم أو لا يتم الانسلاب الثقافي . إن تصور المرء ـ لنأخذ مثلاً شخصية ستيف أوستن بطل مسلسل Six Million Dollar Man ـ يعتمد على عدة عوامل منها مستواه التعليمي ، وثانياً ، موقفه الفكري وبالتالي قدرته النقدية على قراءة معنى أن يكون الانسان آلياً ذا قيمة تبلغ مليون أو ألف مليون دولار . . . إن التصور الفوري يختلف من شخص إلى آخر كما أشرنا . واذا كانت الظروف المحيطة التي تسيطر وتتحكم في التنشئة الاجتماعية ـ كالام والأب ـ يمكنها أن تكسب التصور الآني تفسيرات أخرى ، فاننا لا نستطيع أن نعتمد عليها كلياً ، حيث أن جماهيرنا في غالبها أمية ، وحتى أن نسبة كبيرة من المتعملين هم أشبه بالاميين ، اذ انهم لا يمتلكون الحس النقدي القادر على التمييز . ومن هنا ففي العملية السيكولوجية الذاتية ـ التي تتم داخل الفرد ذاته ـ يكمن خطر التأثير الاعلامي الغربي في تكوين شخصية منسلبة ، تلك التي تمثل شخصيات غربية وقيماً غربية .

ففي دراسة أعدها توفيق فرح (١٩٧٧ : ص ص ٩٦ ـ ٩٧) حول التنشئة السياسية الاجتماعية للأطفال الفلسطينيين جاء ما يلي :

« حاولنا أن نميز قيم الاطفال من خلال أسئلة اختبارية تشتمل السؤال : من هو بطلك ؟ فالغالبية الساحقة أشارت اجاباتهم على أنه أحد أعضاء المقاومة الفلسطينية مثل : الفدائي ، أبو عمار، أبو علي اياد ، ليلى خالد ، واثنان ذكرا اسمي نجمي كرة قدم ، وطفل ذكر أنه الرجل الذي كلف ستة ملايين دولار Six Million Dollar Man وكم من الأطفال الآخرين الذين ينظرون إلى شخصيات كهذه باعتبارها نماذجها وابطالها وكم تخلق هذه الافلام من الصور المشوهة لدى الأطفال ؟

التأثر المتوقع للاذاعة المرئية

يتمثل تأثر الاذاعة المرئية فيما يلي :

١ ـ ان الجهاز المرئي يستهلك وقتاً كبيراً من وقت الاطفال والمراهقين ، في حين أن هذا الوقت كان يمكن أن يستثمر في نشاطات أكثر فائدة . وخاصة ان معظم البرامج التي يشاهدها هؤلاء الأطفال والمراهقون ليست مخصصة لهم ولا تلبي حاجات التنشئة الاجتماعية الأساسية .

٢ ـ إن ما يعرض يمثل في أغلب الأحيان نماذج للاحتذاء بدون القدرة على التمييز بين السيء والحسن من الشخصيات . ويؤثر الجهاز المرئي على توقعات المشاهد وسلوكه بمشاهدة شخصيات مختلفة . . وقد تؤثر بدورها على طموحات المشاهد الوظيفية .

؟ ـ التلفزيون (كأحد وسائل التنشئة الاجتماعية) يؤثر على المعتقدات والقيم وصياغتها . وان التعرض لقيم مختلفة من خلال البرامج الغربية المختلفة يؤدي إلى خلق الاضطراب في الشخصية وبحثها عن البديل وذلك واحد من مظاهر الاستلاب .

٤ ـ إن عالم الجريمة الذي يصاحب كثيراً من البرامج الأجنبية يخلق ظروفاً نفسية يمكن أن تعزز الميل للسلوك العدواني .

٥ ـ ان الاعلانات التجارية يمكن أن تخلق رغبة في الاستهلاك غير ضرورية لدى المواطن . وكذلك فان الاعلان التجاري عن أشياء الأطفال يمكن أن يؤدي إلى ضغط غير اخلاقي على الآباء ، لشراء ما يرغبه الأطفال ، وهم غير قادرين على ذلك أو غير راغبين به .

٦ ـ إن الجهاز المرئي ـ في أحوال كثيرة ـ يقف جنباً إلى جنب مع المؤسسات التقليدية للتنشئة الاجتماعية مثل العائلة والمدرسة ، ولكن خطورته انه حر من العديد من الكوابح والموانع الأخلاقية المفروضة على هذه المؤسسات التي تتعامل مع الطفل . ومن ثم فان الأطفال يتعرضون في مشاهدتهم للبرامج الغربية إلى عالم الكبار في حين أن مثل هذا التعرض يؤدي إلى خلط القيم لدى الأطفال .

لقد أدى الغزو الثقافي الغربي من خلال وسائل الاعلام الى النتائج التالية والتي بحاجة الى دراسات معمقة .

١ ـ التأثير على الثقافة التقليدية ويظهر هذا بوضوح بتأثيرها على الفلكلور وانحدار الفنون التقليدية واختفاء بعض أشكالها . ولعل التأثير على الاغاني والموسيقى الشعبية مثال واضح للجميع .

٢ ـ ثورة التوقعات التي قال بها ليرنر Lerner حيث أن وسائل الاعلام بمفعولها للاطلال على العالم الخارجي زوّد الناس بتوقعات وطموحات من الصعب اشباعها مما أدى إلى زيادة الاحباط . وهذا يؤدي احياناً إلى البحث عن عالم التوقعات في خارج حدود الوطن ، من خلال الكلمة أو الصورة وتصبح تلك النماذج الخارجية وكأنها عالمه المثالي الذي يحلم به . ومن هنا تأتي صورة من صور الانسلاب .

٣ ـ تقديم ثقافة لاستهلاك المواطن العربي وذلك من خلال الاعلانات التي تشجع الروح الاستهلاكية على حساب الانتاجية وبذلك اسهمت الاعلانات اسهاماً فعالاً في خلق ذهنية استهلاكية تقع ضحية الاعلان ، وتتابع ما يستجد من بضائع .

٤ ـ تقدم البرامج الغربية قيماً تعكس ثقافات مجتمعها مما يؤثر في تشكيل القيم العربية السائدة ويعمل على تغييرها ، وهذا بدوره يؤثر على مواقف الأشخاص ويخلق لديهم نوعاً من الوعي المصطنع الذي يقود الى الانسلاب .

٥ ـ خلق صور مشوهة عن العالم الخارجي بما يخدم الغرب ، ومما يؤدي إلى تحريفات في تصور المرء لواقعه . وهذا يؤدي إلى تمثل الاشخاص بالصور التي فرضت عليهم وقبولها وكأنها واقعهم أو نماذجهم التي يجب أن تحتذى .

٦ ـ التأثير على الروح المعنوية على مستوى جماعي وفردي .

إن التركيز في الصفحات السابقة على أهمية تأثير وسائل الاعلام الغربية على انساننا العربي وثقافته ، لا يعني قفل الأبواب أمام الثقافات الأخرى ، ولكننا نوجه الانظار إلى خطورة ما يمكن أن تؤديه الى انسلاب ثقافي في وطننا العربي ومن ثم يكون البحث عن سبيل حماية الثقافة القومية بدون انغلاق ضرورة ملحة . ونحن اذا كنا نؤمن بشمولية الفكر الانساني ، فاننا نؤمن بخصوصية تطبيقه ، وبخصوصية الثقافة . إن النظريات والفلسفات سواء أكانت من الشرق أو الغرب ان كانت صالحة فهي تصلح في اطارها الثقافي التاريخي والاجتماعي . ومع هذا فاننا لا نريد من هذا انغلاقاً يؤدي الى بحث عن سلفية تكون مجرد رد فعل عاجز للتحديث والتحدي الخارجي ، أو مجرد دفاع متقوقع على النفس . ولا نريد انسلاخاً عن ثقافتنا بحيث يشكل تبعية للثقافات الأجنبية . إن ما نريده وما نحتاج اليه فكر نقدي ينبع من خلال واقعنا وتجربتنا ، فكر متفتح قادر على الاستفادة من تجارب الآخرين في هذا العالم الذي تمتد أطرافه ، ولكن تضيق المسافات بين أبعاده .

إننا لا نريد أن نرى الانسان العربي ضائعاً غريباً في بلده ولا نريد أن نرى بين صفوفنا صورة الشخصية المنسلبة كما يصفها ناثيلد نيل Nathilede Neil (١٩٦٦ : ص . ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦) بقوله :

« الانسان المنسلب لا يمكن أن ينجح سواء في ان يكون نفسه أو في أن يعيش في حالة تركيب خلاقة مع البشر والأشياء الأخرى . انه لا يعيش مع الحاضر وهو مهتم فقط بالمستقبل مما يقوده إلى البحث عن نوع من المطلق ، أو يقوده إلى رغبة في الانسجام مع النموذج المثال . إن الانسان المنسلب لا يفكر أو يعمل بذاته ، انه دائماً يعزو الأمور إلى شخص آخر خارج ذاته ؛ مثل التقاليد ، والعقيدة الايديولوجية ومخلوق مبهم أو

أكمل . انه لا يعرف كيف يعيش في حوار مع الآخرين أو سلام خارجي . انه دائماً في حاجة إلى شخص آخر ، ليقدسه أو يخدمه ، يكرهه أو يقاتله . انه يقضي حياته متعقباً شيئاً إما مادي الهدف ـ يتحول إلى مطلق مثل الرغبة في الثروة أو الراحة أو رموز الوجاهة ـ وإما روحي الهدف وهو يتحول أيضاً إلى مطلق ، مما يقوده إلى ازدراء الحياة والعالم . وهو يعتقد احياناً انه حصل على المطلق ، ومن ثم فانه مبتهج ومتوقع ، وفي احياناً أخرى يشعر بالاحباط ، ومن ثم فهو يائس وقانط . يقضي حياته في الرغبة والأمل والتطلع والعبادة والاستخفاف . الانسان المنسلب المتوتر متأهب للقتال ، عنيف وضيق الأفق ، غير متسامح وسلطوي ، انه الانسان العاطفي ولكنه أيضاً انسان جبان يخشى السلطة ، ويخشى أن يفكر ويفعل كما يفكر الآخرون ويعملون . انه جبان هياب ممتثل ، انه انسان قطيعي » .

مقترحات

حيث اننا معنيون بدراسة أشكال التبعية الثقافية في الوطن العربي فان هذه المسؤولية لا يمكن أن تتم من خلال جهد الأفراد . ان دراسة وسائل الاعلام وتأثيرها على الافراد والمجتمعات تجد اهتماماً خاصاً في معظم انحاء العالم ، في هذ العصر الذي أقل ما يوصف بأنه عصر الاعلام .

وللأسف ، فان الجامعات العربية التي تهتم بتخريج الاعلاميين ، لا تهتم بتخريج الباحثين ، الذين يدرسون تأثير وسائل الاعلام على المجتمع . ولعل هذا العجز تقع مسؤوليته كذلك على عنماء الاجتماع والانثروبولوجيا ، الذين تعنيهم وسائل الاعلام وتأثيرها على الافراد والمجتمع والثقافة . وحيث يفتقر الوطن العربي إلى مركز للدراسات الميدانية الاعلامية ، فانني اقترح انشاء **مركز أبحاث للدراسات الاعلامية العربية** ، ويكون هدف هذا المركز اجراء دراسات حول تأثير وسائل الاعلام على الافراد والجماعات والثقافات . واعتقد أن مثل هذا المركز اذا كانت له صلة ما بجامعة الدول العربية فستتاح له فرصة تعاون الباحثين من كل أقطار الدول العربية وسيتيح امكانية اجراء بحوث ميدانية في كل الاقطار العربية ، ومن ثم فان مسؤوليات هذا المركز ـ أو لنقل ان مسؤوليات البحوث الاعلامية الملقاة على عاتق الاعلاميين وعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا العرب ـ تتمثل فيما يلي على سبيل المثال لا الحصر :

١ ـ بحوث ميدانية عن تأثير البرامج الأجنبية على المواطن العربي وخاصة الأطفال واليافعين .

٢ ـ بحوث ميدانية عن تأثير الاعلانات على المستهلك العربي .

٣ ـ اجراء دراسات تعتمد على أسلوب تحليل المضمون لما ينشر في الصحف العربية من اخبار عالمية وتأثيرها على الرأي العام .

٤ ـ دراسات تعتمد أسلوب المضمون لما ينشر في الصحف العربية من دراسات مقالات مترجمة وتأثيرها على الأفراد .

٥ ـ بحوث ميدانية عن برامج الأطفال وتأثيرها على تكوين شخصية الطفل .

٦ ـ بحوث عن تأثير الثقافات الأجنبية على التراث الشعبي .

٧ ـ دراسات عن قصص ومجلات الأطفال أمثال السوبرمان والوطواط ودورها في تشكيل تصورات الطفل للعالم الخارجي .

٨ ـ دراسات عن تدفق المعلومات بين أقطار الوطن العربي .

٩ ـ دراسات عن تدفق المعلومات من العالم الغربي إلى الوطن العربي .

١٠ ـ دراسات عن البرامج الاذاعية المسموعة والمرئية ومدى تخصيصها من نسب نوعية وكمية للبرامج الثقافية والترفيهية وغيرهما .

١١ ـ ان اهتماماً خاصاً يجب أن يركز على دراسة تأثير اذاعة العدو الصهيوني المرئية والمسموعة على المواطن العربي وخاصة في المناطق المحيطة بالكيان الصهيوني مثل الأردن وسوريا ولبنان ومصر والأراضي المحتلة .

١٢ ـ دراسات عن دور وسائل الاعلام في التنمية .

١٣ ـ دراسات عن تأثير الاذاعات الأجنبية كاذاعة لندن ، مونت كارلو ، صوت أمريكا ، على الرأي العام العربي .

١٤ ـ ترجمة أهم النظريات والابحاث الاعلامية من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية .

هذه بعض المقترحات . وتظل مسألة تأثير وسائل الاعلام الغربية على الثقافة العربية أمراً نظرياً ما دمنا لم نقم باجراء الدراسات والبحوث حولها وتلك مسؤولية عسيرة !

المراجع :

- Blum, Robert (ed) (1963) *Cultural Affairs and Foreign Relations*. Englewood Cliffs, N. J. U. S. A. Prenticehall, Inc.
- Comstock, George, et al (1978) *Television and Human Behavior*. New York ; Columbia University Press.

- Niel , Mathile (1966) « The Phenomenon of Technology : Liberation or Alienation of Man » in *Socialist Humanism* . (ed) Erich From . Garden City , New York : Doubleday and Co. , Anchor Books.
- Nordesntreng, Kaarle and Tapicvaris (1974) *Television Traffica One Way Street ?* Paris : UNESCO.
- Roberts , Donald F. (1977) « The Nature of Communication Effect » in the Process and Effects of Mass Communication . (ed.) Schramn and Roberts . Urbana , Chicago , London : University of Illinois Press.
- Schatz , Oskar and Ernest Florian Winter , (1966) Alienation , Marxism , and Humanis (A Christian viewpoint) in Socialist Humanism . (ed) Erich Fromm , Garden City, New York : Doubleday and Co. Anchor Books .
- Smith , Anthony (1980) The Geopolitics of Information : *How Western Culture Dominates the World* . New York Oxford University Press.
- Ellul, Jacques, (1973) Propaganda : The Formation of *Men's Attitudes*. New York : Random House, Vintage Books.
- Farah , Tawfic (1977) « Political Socialization of Palestinian Children in Kuwait » in *Journal of Palestine Studies :* Vol. VI, No 4 Summer 1977 issue 24 pp. 90 - 102.
- Haster, Al (1974) « International News Agencies » in *Mass Communications : A World View* . , (ed .) Alan Wells. Palo Alto , California : Mayfield Publishing Co.
- Lerner , Daniel (1964) The Passing of Traditional Society : Modernizing the Middle East , London : Collier - Macmillan Limited , The Free Press of Glencoe.
- McNair , Raymond (1982) « The International Language » in *The Plain Truth* . Vol 47 No. 2 February 1982.
- McPhail ,Thomas L. (1981) *Electronic Colonialism : The Future of International Broadcasting and Communication* Beverly Hills - London : Sage Publication.

دار الآداب تقدم

في سبيل ارتقاء المرأة

بقلم روجيه غارودي
ترجمة جلال مطرجي

إن مجتمعاتنا، منذ ستة آلاف سنة، قد أنشأها وقادها الرجال، وفي سبيل الرجال:

أما نصف البشرية النسائي، فقد وُضع تحت الوصاية وهُدر. وهذا النظام الذكوريّ هو نظام المنافسات وكل مظاهر العنف والتسلّطات والحروب والجيوش.

وحركة النساء، منذ قرنين، ولا سيما منذ سنة ١٩٦٨، تَضع قيد المحاكمة أسس هذا النظام.

والنساء، إذ يخضن الصراع في آن على جبهتيْ الأمومة وحياتهنّ الشخصيّة والاجتماعية، هنّ أشدّ تأثّراً بالبطالة من سواهنّ. إنّهن يُقصَيْن غالباً عن المناصب- المفاتيح في الاقتصاد والإدارة والسياسة. وحتى على صعيد الزوجيّة والعائلة، فإن استقلالهنّ الكامل أبعد من أن يكون قد اعترف به.

ولا شك أن ارتقاء النساء الفعلي إلى جميع الوظائف القياديّة سيؤنسن السلطة. كما أن التفتّح الكامل للجنسيّة النسائية سيؤنسن الحبّ....

وهذا التحوّل سيتطلّب حدًّا من التغيير في البُنى والذهنيّات يصبح معه تحرير النساء تحريراً الإنسانية.

وهذا الكتاب «في سبيل ارتقاء المرأة» يُعطي وجهاً لهذا الأمل.